رسول للاسلام في الغرب

وفاة سيد امير علي

لمت الينا الانباء البرقية في ٤ اغسطس الماضي المرحوم « مولانا » سيد امير علي المشترع والفيلسوف الهندي الاشهر ، فطويت بوفاته صفحة حافلة من انفس صفحات التفكير الاسلامي في عصرنا ، وفقد الاسلام اماماً من احدث ائمته ، وأرسخهم قدماً في دراسته ، ومجاهداً باسلاً قضى زهاء نصف القرن في الذود عن مبادئه وأحكامه . ولعلَّ مفكراً مسلماً لم يعمل في عصرنا لبث دعوة الاسلام العلمية والاجتماعية قدر ما عمل امير علي برائع بيانه ، وناهض حجته ، وطريف نقده وتحليله . فقد خاطب امير علي الغرب بلغة غربية ، وعمد الى شرح مبادئ الاسلام الروحية والشرعية والاجتماعية باساليب الغرب العلمية ، فكان اول مسلم استطاع ان يخرج للغرب صورة صادقة من هذه المبادئ ، تضطرم بإيمان مسلم أشربت نفسهُ روح الاسلام الحقة ولا تشوبها مع ذلك ذرة من التشيع او التحامل ، وأن يعرضها في ثوب علمي محدث ، يتذوقهُ الذهن الغربي ولا ينكره الذهن الاسلامي . وكان اول مسلم استطاع ان يخرج للغرب اجمل وادق صورة من المجتمع الاسلامي القديم ، ومدنيته وتفكيره .

ويرجع ذلك بالاخص الى نشأة امير علي وتكوينه الفكري . فهو سليل اسرة عربية تنتمي الى آل البيت ، هاجرت في اواسط القرن الثامن عشر من فارس الى الهند واستقرت في موهان من اقليم اود (اي دهيا) في شمال الهند . وفي موهان ولد سيد امير علي في ٦ ابريل سنة ١٨٤٩ من اب مسلم هو سعادة علي وام انجليزية هي ايزابيل ادا . ودرس اولاً في كلية هوجلي في كلكوتا ، ونال اعلى درجاتها في التاريخ والادب . ونال شهادة العالمية من كلية عليكره الاسلامية . ثم ذهب الى لندن ودرس القانون ونال اجازتهُ سنة ١٨٧٣ . واشتغل بالمحاماة بادئ بدء . ثم عين استاذاً للشريعة الاسلامية في كلية الرأسة في كلكوتا ، فديراً لمدرسة الحقوق بها ، فكبير القضاة في كلكوتا . وكان قد ظهر بكفايته وبيانه في كل هذه المناصب فعين في سنة ١٨٩٠ مستشاراً في محكمة بتنالة العليا ، فكان اول هندي جلس في هذا الكرسي . وفي سنة ١٩٠٤ اعتزل القضاء وعاد الى انجلترا ، واقام في لندن . وكان اسمهُ قد ذاع بوشئذٍ ، ولفت انظار

ولاة الامر في الهند وفي انجلترا بخدماته القضائية ، وكفايته الفقهية ، ومقدرته النادرة في الكتابة بالانجليزية فعين في سنة ١٩٠٩ مستشاراً ملكيًّا في المجلس المخصوص ، وانتدب للعمل في لجنته القضائية فكان ايضاً اول هندي ظفر بهذا المنصب السامي

بيد ان التدرج في مناصب الدولة ومراتبها الرفيعة ليس أعظم ما في حياة سيد أمير علي ، فان جانبها الباهر هو الانتاج الفكري ، والنشاط السياسي اللذين سلخ أمير علي فيهما زهاء نصف قرن . وقد اختص فتوته وكهولته بالانتاج الفكري ، ولم يأخذ قسطه من النفوذ السياسي الا في شيخوخته بعد ان تبوأ بظفره في عالم التفكير والكتابة مكاناً اسمى . ولم يعن أمير علي بالتفكير والكتابة الا في ناحية واحدة : هي الاسلام — مبادؤه وأحكامه وتعاليمه وتاريخه : ففي هذا الميدان برز أمير علي ، وكان الفقيه البارع والفيلسوف المحدث ، والكاتب المبدع ، وكان أول ما أخرج في هذا الباب رسالة نقدية في حياة النبي وتعاليمه[1] كتبها سنة ١٨٧٢ وهو فتى لا يجاوز الثالثة والعشرين فلفتت اليه الانظار في الهند . والظاهر انه آنس منذ البداية في نفسه كفاية خاصة لتحقيق تلك الامنية التي جاشت بها نفسه ، وخصها بتفكيره وبيانه ، وهي عرض الاسلام على الغرب في ثوبه الحقيقي ، والذود عنه مما يرمى به ظلماً في المجتمعات الغربية . قد وفق أمير علي في تحقيق هذه الغاية أعظم توفيق ، وأبدع فيما وفق اليه . فاخرج للغرب بالانجليزية سلسلة كتبه النفيسة في شرح مبادىء الاسلام وأحكامه . ولم يقتصر فضله في ذلك على تدوين الاحكام الشرعية وتنظيمها وشرحها كما فعل في مؤلفه الضخم : « الاحكام الشخصية في الاحكام الشرعية »[2] وفي « مختصر الشريعة للطلبة »[3] اللذين أملى وضعهما عليه ما شاهده اثناء حياته القضائية في معاهد بغالة الفقهية ومحاكمها الشرعية من غموض وتعقيد في درس الشريعة الاسلامية وتطبيقها على يد قضاة من الانجليز قلما يدركون روح التشريع الاسلامي . لم يقتصر فضله على ذلك ، ولكنه عمد الى غاية وعرة شاقة هي شرح مبادىء الاسلام الروحية من الوجهة العلمية ، وتحليلها من الوجهة الاجتماعية ، والمقارنة بينها وبين مبادىء الأديان الأخرى ، والى حياة النبي العربي وتصوير خلاله ومناقبه ، وشرح تعاليمه السياسية ، فأخرج أقوى كتبه

(1) Critical Examination of the Life and Teachings of Mahomet
(2) Personal Law of the Mohammedans
(3) Student's Handbook of Moh. Law

وأعظمها : « روح الاسلام أو حياة محمد وتعاليمه » [1] ، وهو مؤلف ضخم يعرض فيه بالنقد والتحليل ترجمة النبي ، وأصول الاسلام وفرائضه ، وفكرته في الالوهية ، وأحكامه في الأحوال الشخصية والاجتماعية ، وفكرته في البعث ، وروحه في القومية والسياسة والعلم والأدب ، والفرق الاسلامية ، وفلاسفة الاسلام . وفيه يبلغ ذروة الاتقان والاجادة في دقة التصوير ، وسلامة التدليل والتحليل ، وروعة البيان والعرض ، ولاسيما في مقدمته التي هي قطعة من أقوى وأبدع فصول التوحيد والكلام . أما ناحية الاسلام الاخلاقية فقد تناولها أمير علي في كتاب آخر هو : « خلاق الاسلام » [2] ، الذي يعتبر تتمة لكتاب « روح الاسلام »

ولم يقف أمير علي عند هذا العرض الباهر لمبادىء الاسلام وتعاليمه ، وهذا الوصل الجريء الراجح بين العلم والدين ، بل شاء ان يقدم الى الغرب صورة صادقة من المجتمع الاسلامي ذاته خلال العصور المتعاقبة ، وان يقرن الصور المعنوية التي قدمها من الاسلام وروحه وأصوله ، بصور مادية من سير الدول الاسلامية ، فوضع كتابه « مختصر تاريخ المسلمين » [3] ، وفيه يتناول تاريخ الدول الاسلامية دولة فدولة . واذا ذكرنا تشعب الموضوع واتساعه كان وصف المؤلف كتابه « بالمختصر » حقاً من حيث الايجاز في سرد الحوادث ولكن كتاب أمير علي يقدم للقارىء صورة من ابدع الصور التي وضعت في تاريخ الاسلام ، ويبذ الكتب الموسوعة بالطرافة ، والحداثة ، وحسن الترتيب ، ودقة التحليل . وفيه يبدو أمير علي المؤرخ المستنير ، والناقد المتمكن ، فيسرد تاريخ الاسلام ودوله في ضوء النظريات الحديثة سواء من حيث الدولة او السياسة ، ويعنى بالناحية الاجتماعية والفكرية ، فيقدم عنها في نهاية كل دولة لمحة قوية ممتعة . وتراه فيما يسرد وينقد يضطرم بروح اسلامي حق لا تشوبه شائبة تعصب او تحامل ، يحمد في مواضع الحمد ويحمل في مواضع الذم . واسلوبه في كل ذلك عذب قوي . وليس من المبالغة ان نقول انه كثيراً ما يسمو الى منافسة جيبون وماكولي خصوصاً في وصف الحوادث العظمى كالحروب الصليبية ، وغزو التتار لبغداد ، وسقوط غرناطة ، والخلاصة ان مختصر أمير علي في تاريخ الدول الاسلامية من انفس ما كتب في هذا الموضوع ، وفي اعتقادنا انه قد وفق اعظم توفيق في ادراك الغاية التي قصدها بوضعه وهي « التعريف بأحدث

(1) Spirit of Islam (2) Ethics of Islam
(3) A Short History of the Saracens

الشعوب التي تركت في العالم آثاراً لا تمحى، والتي ما زالت اوربا الحديثة تتغذى من تراثه»

هذه هي الخدمات الجليلة التي اداها امير علي في سبيل نشر الدعوة الاسلامية والذود عنها بسلاح الحقائق والادلة والمنطق السليم . وقد سبق امير علي وعاصره مستشرقون تجردوا لبحث الاسلام وتاريخه ، وبذلوا في هذا السبيل جهوداً جليلة مشكورة بلا ريب ، ولكن امير علي يفوقهم جميعاً بكونه قد تحرر من اسباب التحامل التي نرى ماثلة في كثير من مباحثهم ، وادرك روح الاسلام الحقة ، ونفذ الى اعماق المواطف والخلال الاسلامية ، فكان بذلك خير اهل للمهمة التي وقف لها تفكيره وبيانه

وكان لسيد امير علي مقامهُ في الزعامة السياسية في الهند . وكان يمثل ابناء الاعوام الطويلة التي سلخها في قضاء الهند وادارتها على تحقيق امنية عزيزة لهُ هي تقدم مواطنيه مسلمي الهند سواء من الوجهة المادية او المعنوية ، وقد بذل في ذلك السبيل جهوداً شتى . وكان اعتداله ، وحزمه ، وكفايته ، تمهد لهُ سبيل الترحيب بآرائه وجهوده . وكان لهذه الجهود نصيب كبير من الفوز حينما كان عضواً بمجلس التشريع الامبراطوري ما بين سنتي ١٨٨٣ و١٨٨٥ ، على انها لم تحمل ثمرتها التامة الا في عهد اللورد مورلي في سنة ١٩٠٩ حيث رأت الحكومة البريطانية أن تدخل طائفة كبيرة من الاصلاحات الدستورية والتشريعية في حكومة الهند تحقيقاً لاماني المعتدلين وتهدئة للاضطرابات الوطنية التي وقعت يومئذ . على ان أمير علي كان في جهوده السياسية بالنسبة للاسلام دولياً أيضاً ، ففي جميع الخطوب التي كانت تدهم الاسلام أو الامم الاسلامية كان صوت أمير علي يرتفع في بريطانيا وفي اوربا . وكان آخر صيحة أرسلها في هذا السبيل نداءهُ المشهور الذي وجههُ ايام الحرب الريفية الى فرنسا ، وناشدها فيه أن تسالم شعباً صغيراً مجاهداً ، فالعالم كله يعرف انها تستطيع سحقهُ بايسر أمر ، ولكن التسامح في احترام الاماني القومية لهذا الشعب الصغير الباسل ، يسجل لفرنسا في صحف الفروسية والشهامة ، فكان هذا النداء قطعة مؤثرة من البيان والحكمة التي عرف بها أمير علي كل حياته

هذه هي صفحة موجزة من حياة هذا المفكر المسلم الكبير وآثاره الجليلة ، فنفقده رزء للعالم الاسلامي كله . ولكن للعالم الاسلامي أن يتعزى عن خطبه الفادح بما اودعهُ امير علي صفحات آثاره الخالدة من عميق حكمته ، وصائب منطقه وسحر بيانه

« السياسة » محمد عبد الله عنان